# الأسس الفكرية للدرس النحوي عند الزمخشري
## وأثرها في الخطاب اللساني

**د. محمود محمد خليل نصرالله**
**وزارة التربية والتعليم - مصر**

**تقديم :**

نشطت الحركة الثقافية العربية والإسلامية في أماكن متعددة من العالم كالحجاز ،والعراق، ومصر ،والشام ،وبلاد المغرب، وبلاد ما وراء النهر، ونافست حواضرها بعضها بعضًا في فترات متوازية أو متوالية، فقامت فيها حضارات،وانتشرت ثقافات، واشتُهر مفكرون وأعلام،كانت لهم إسهاماتهم الواضحة في مسيرة الحضارة العربية والإسلامية عبر تاريخها الطويل .

وقد لقيت بعض هذه المراكز شهرة واسعة ، وذاع صيتها لشهرة بعض أعلامها ، ومن هذه الحواضر " خوارزم " التي فتحها المسلمون في العصر الأموي سنة 93 للهجرة ، على يد قتيبة بن مسلم الباهلي(1)، وهي كما وصفها المقدسي : " كورة جليلة واسعة ، وأهلها أهل فهم ، وعلم ، وعقل ، وقرائح ، وأدب ، يعملون العقل ، ولا يأخذون إلا بمقتضاه، وقلما كان هناك إمام في الفقه والقرآن والأدب إلا وله تلميذ من خوارزم (2).

وفي هذه البيئة الفكرية التي يبني فيها أبناؤها أحكامهم على العقل والفلسفة ، وتتعدد بينهم المذاهب والديانات ؛ نشأ الإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي فخر خوارزم ، وصاحب التصانيف البديعة في التفسير والحديث والفقه والسير واللغة والنحو والتصريف والبلاغة والحكم والأمثال والرجال وغيرها ، والذي يُعد من أجلِّ أهل العربية علما ومعرفة ، ثقة في اللغة ، يضرب به المثل،لقي الأفاضل والأكابر ،وبلغ مكانة سامية في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم، وطار ذكره في الآفاق ، وكتب إليه جماعة من رجال العلم يستجيزونه ، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له ، واستفادوا منه ومن غزير علمه (3).

ونظرا لهذه المكانة السامية التي بلغها الزمخشري في زمانه ومن بعده أردت أن أقف في إيجاز على الأسس الفكرية التي ترتكز عليها آراؤه النحوية من خلال أهم أعماله ؛ كما تبدو من الكشاف في التفسير والمفصل في علم اللغة، وإبراز دورها في إثراء الدرس اللساني قديماً وحديثاً، ومحاولة تثمين ما يجب تثمينه، وتعميق الاعتزاز به، وتنشيط ما يجب تنشيطه، وتعزيز الاستفادة منه، والخروج بنتائج تكشف عن أصالة القديم وثوابته، وتثري الدرس الحديث وتنشطه .

وتتمثل أهم هذه الأسس فيما يلي :

- تنوع روافد المعرفة عنده .
- ثقافته وموسوعيته .
- مذهبه النحوي أو انتماؤه إلى المدرسة البغدادية .
- مذهبه الكلامي أو اعتزاله .
- مذهبه الفقهي .

تنوع روافد المعرفة عند الزمخشري وسبب ذلك :

ولد الزمخشري بزمخشر إحدى قري " خوارزم" فنسب إليهما، وذلك في بيت متدين متدثر بالصلاح، ورحل إلى "بخارى" في طلب العلم، حيث كانت آنذاك كعبة العلماء، فأخذ عن علمائها، وتتلمذ لجهابذتها، وزار "مرو" ، ولقي بها الإمام السمعاني ، وتنقل بين خوارزم وخراسان محصلا للعلم ، ثم رحل إلى أصفهان ؛ عاصمة السلاجقة، ثم دخل بغداد، فناظر بها وسمع من علمائها،ودخل مكة . حرسها الله فجاور بها،واتصل بشريفها علي بن حمزة بن وهاس؛وكان أديبا، فقويت علاقتهما،وزار همدان، وطوف في جزيرة العرب حتى قال "وطئت كل تربة في أرض العرب " ، ثم قفل عائدا إلى موطنه الأول ، ثم ما لبث أن عاوده الحنين إلى مكة ، فعاد إليها مارا بالشام ، ومدح فيها " تاج الدين " صاحب دمشق ، ولكن ما لبث أن عاد إلى وطنه معرجا في طريقه على بغداد ، وبها زاره أبو السعادات هبة الله بن الشجري ، فهنأه بقدومه ، وأثنى عليه.

وقد كانت نشأته في عهد الوزير نظام الملك الذي قرب طلبة العلم والعلماء، ووفر لهم أسباب الرزق ، ووسع عليهم العيش ، وأمنهم عوائل الزمن ، لينصرفوا إلى علمهم وعملهم ، ولا ينشغلوا بمأكلهم ، فتوفرت له منذ حداثة سنه أسباب المعرفة والعلم، فرحل في طلبه متعلما ومعلما ، ولذلك كثر شيوخه وتلاميذه (4)

وحفل عصره بعلماء كبار،رفعوا للعلم منارات، واتصفوا بالموسوعية،وكان لخوارزم نصيب وافر من أولئك الأعلام،وبسببهم انتشرت فيها المدارس والمكتبات،وازدهرت أحوال العلم والعلماء ، وبلغ التصنيف والتأليف بها مبلغا كبيرا (5).

وكان من شيوخه أبو مضر محمود بن جرير الضبي النحوي ؛ الذي يوصف بأنه فريد العصور ، ووحيد الدهور في علم اللغة والنحو والطب ، ويضرب به المثل في أنواع الفضائل ، ومنهم أبو بكر عبدالله ابن طلحة بن محمد بن عبدالله الأندلسي ؛ قرأ عليه بمكة كتاب سيبويه ، وشرح

رسالة ابن أبي زيد ، ومنهم أبو علي الحسن بن المظفر النيسابوري، وسمع من كثير من علماء بغداد ؛ كأبي الخطاب بن البطر، وشيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي ، وأبي سعد الشفاني ، وأخذ الفقه من الشيخ السديد الخياطي ، وقرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور موهوب بن الخضر الجواليقي ، وأخذ عن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس ، من علماء مكة وأشرافها ، وأخذ عن ركن الدين محمود الأصولي ، أخذ عنه علم الأصول .

ولا أدل على تنوع فنون المعرفة عنده من كثرة تلاميذه وتنوع معارفهم وثقافاتهم ، ومن أشهرهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن هارون العمراني الخوارزمي، الملقب بحجة الأفاضل، وفخر المشايخ، وهو أكبر أصحاب الزمخشري وأوفرهم حظا من غرائب آدابه، ومنهم محمد بن أبي القاسم بن بايجوك الخوارزمي النحوي، الملقب بزين المشايخ، قال عنه ياقوت :" كان إماما في الأدب وحجة في لسان العرب "، ومنهم أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر البلخي؛أحد أئمة الأدب،والموفق بن أحمد بن أبي سعيد اسحاق أبو المؤيد؛ المعروف بأخطب خوارزم، كان متمكنا في العربية، غزير العلم، فقيها، فاضلا أديبا، شاعرا (6).

وممن اشتهر من تلامذته أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان ، وأبو المحاسن عبدالرحيم بن عبدالله البزار بأبيورد ، وأبو عمرو عامر بن الحسن السمار بزمخشر ، وأبو سعيد أحمد بن محمود الشاتي بسمرقند ، وأبو طاهر سامان بن عبدالملك الفقيه بخوارزم ، وقد أجاز جماعة منهم زينب بنت الشَعْري ؛ التي أجازت ابن خلكان ، والحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي ، وأبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي ، ومحمد بن محمد بن عبدالجليل بن عبدالملك رشيد الدين المعروف بالوطواط .

ونتيجة لتلك الموسوعية كثرت تصانيفه وتنوعت ، فألف في النحو ، واللغة ، والأمثال، وغريب الحديث ، والتفسير ، والعروض ، والفقه ، وغير ذلك ، وله ديوان شعر، وقد عد له الدكتور فاضل السامرائي في كتابه " الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري " ستة وخمسين مؤلفا ، وفي مقدمة تحقيق الكشاف عد له الشيخ عادل أحمد عبدالموجود ورفيقه الشيخ علي محمد عوض أربعة وأربعين كتابا، وفي تحقيق " أساس البلاغة " لمحمد باسل عيون السود ذكر له خمسة وستون مؤلفا ما بين مطبوع، ومخطوط، ومفقود، وذكر الأستاذ الحوفي في كتابه " الزمخشري " ستة وخمسين كتابا مقسمة إلى مجموعات في العلوم الدينية ورجالها، وفي النحو، واللغة، والعروض، والأدب، والمنطق

وقد ذاعت تصانيف الزمخشري واشتهرت في الآفاق ؛ ففي التفسير اشتهر له الكشاف ، الذي

كتبه في مكة ، واستغرق في تصنيفه سنتين ونصف ، وكان معجبا به حتى قال فيه :

**إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها . لعمري . مثل كشافي**
**إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي**(7)

وبلغ من شهرته أن ذكر له بروكلمان ما يقارب خمساوثمانين مخطوطة ، وسبع طبعات في القاهرة ، وأربعة وعشرين شرحا وتعليقا ، وأحد عشر مختصرا ، وثلاثة ردود ، أشهرها ما تعقبه به الإمام ناصر الدين أحمد بن منير الإسكندري من الناحية الاعتزالية ، وما تعقبه به أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط من الناحية اللغوية(8).

وفي النحو اشتهر " المفصل " ، وبلغ مكانة عالية ، وتناوله كثير من الشراح بالدرس والتعليق ، وبلغ من تعظيم قدره أن الملك المعظم عيسى الأيوبي جعل لمن يحفظه مائة دينار وخلعة ، كما عده النقاد ثاني كتاب في النحو بعد كتاب سيبويه، واعتبروه مرحلة تامة النمو، وحلقة كاملة الوضع في سلسلة البحوث اللغوية، قال ابن يعيش في مقدمة شرحه: " وهذا الكتاب جليل قدره، نابه ذكره قد جمعت أصول هذا العلم فصوله، وأوجز لفظه، فتيسر على الطالب تحصيله (9).

ومن المعاجم اشتهر له أساس البلاغة ، ألفه كما يقول " لتبين مراسم البلغاء والعثور على مناظم الفصحاء ، والمخايرة بين متداولات ألفاظهم ، ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا ، وما اسْتَرَكُّوا وما استنزلوا ، وما استفصحوا وما استجزلوا ، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف ، وبأسراره ولطائفه أعرف ، حتى يكون صدر يقينه أثلج ، وسهم احتجاجه أفلج ، وحتى يقال هو من علم البيان حظي ، وفهمه فيه جاحظي (10).

وتميز هذا المعجم عن بقية المعاجم ، فلم يؤلف قبله ولا بعده مثله ، ولم يأت على طريقته معجم آخر ، سهل الترتيب ، لا يغني عنه غيره ، جاء في كشف الظنون : " كتاب كبير الحجم عظيم الفحوى ، من أركان فن الأدب ، بل هو أساسه ذكر فيه المجازات اللغوية ، والمزايا الأدبية ، وتعبيرات البلغاء على ترتيب موادها "(11)، وقال الأستاذ جرجي زيدان : "هو معجم في اللغة العربية لا مثيل له في طريقته ، لأنه يبحث على الخصوص في استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل بقطع النظر عن معانيها المستقلة أو اشتقاقها، فإذا أراد شرح مادة أتاك بجملة فيها تلك المادة في موضعها من الاستعمال، وهو جزيل الفائدة "(12) ، وقال عنه الأستاذ طه الراوي : "هو أحسن كتاب ألف في بابه ، يشرح فيه الألفاظ بإدخالها في جمل هي غاية في البلاغة ، ويفصل استعمال الألفاظ على وجه الحقيقة ثم على وجه المجاز ، ولو كان فيه شيء من التوسع لما فضله معجم من المعاجم

التي سلك فيها مؤلفوها المسلك اللفظي"(13).

وقد ذكر الشيخ إبراهيم الدسوقي في ترجمته للزمخشري طرفا من مصنفاته، فقال عنها : " وصنف التصانيف البديعة الغرر ، منها هذا الكتاب في تفسير القرآن، لم يدرك شأوه فيه إنسان ، والفائق في تفسير الحديث ؛ ولم ير مثله في القديم ولا في الحديث، وأساس البلاغة في اللغة؛ ولم يبلغ كتاب قبله في التمييز مبلغه، والمفصل في النحو ؛ وهو كتاب كبير، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، والكتاب الجليل المسمى بديوان التمثيل "(14).

وكان لكثرة رحلاته على النحو السابق، وتعدد شيوخه، وتنوع فنون العلم والمعرفة عنده أثره الكبير في آرائه النحوية،من حيث التقعيد والتبويب والترتي،مما أدى إلى أن يكون له منهجه المتميز، الذي يعرف به، ويختلف فيه عن غيره،والذي كان سببا في الثناء عليه؛حتى من الذين خالفوه منهم،وتتبعوا أعماله بالنقد والتعريض .

**ثقافته وموسوعيته العلمية :**

وُصِفَ الزمخشري بأنه موسوعي الثقافة ،تمثلت فيه وحدة المعرفة كأوضح ما يكون ، ومن تلك الوحدة انطلقت آراؤه ، وعليها بنيت الأسس الفكرية لأعماله ومصنفاته، فكان –مع تمسكه بالشريعة– عقلاني الفكر اعتزالي المذهب أديبا، شاعرا .. رقيق الشعر،عالما بالرجال وأحوال الناس؛ واتسمت أعماله بالابتكار والجرأة، وبات واحدا من أشهر علماء عصره ، ولا تزال شهرته تملأ الدنيا، وتشغل الباحثين حتى الآن .

وقد كان من آثار هذه الموسوعية العلمية عنده النظر إلى علاقة النحو بالمعنى والبلاغة ، فكان عند الإعراب ينظر في ترجيحه لوجه على آخر إلى سمو المعنى وبلاغته ، ويقلب الكلام على ما يحتمله من أوجه ، ولا يكتفي بوجه واحد ، وفي ذلك غناء للغة وإثراء لها ، وتوسيع لآفاق البحث ، واستدعاء للمعاني المختلفة التي يحتملها التعبير (15).

ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في الكشاف في قوله تعالى : ( الم * ذلك الكتاب ) " البقرة: 1 ، 2 " ، فقد ذهب إلى القول بأنه إن جعلت " الم " اسما للسورة ففي التأليف وجوه ، أن يكون " الم " مبتدأ ، و " ذلك " مبتدأ ثانيا،و " الكتاب "خبره ،والجملة خبر المبتدأ الأوّل ، ومعناه : أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ماعداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا ". ويمكن أن يكون " الكتاب " صفة ، ومعناه : هو ذلك الكتاب الموعود ، وأن يكون " الم " خبر مبتدإ محذوف ، أي : هذه " الم " ، ويكون " ذلك " خبرا ثانيا أو بدلا ،على أن " الكتاب " صفة

، وأن يكون " هذه الم " جملة مستقلة ، و " ذلك الكتاب " جملة أخرى، وإن جعلت " الم " بمنزلة الصوت ، كان " ذلك " مبتدأ، خبره " الكتاب " ، أي : ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ،أو أن " الكتاب " صفة، والخبر ما بعده أو قدّر مبتدأ محذوف ، أي : هو – يعنى المؤلف من هذه الحروف –ذلك الكتاب ، وقرأ عبدالله : الم تنزيل الكتاب لاريب فيه ؛ وتأليف هذا ظاهر ، ومحل" هُدىً لِلْمُتَّقِينَ " الرفع ، لأنه خبر مبتدإ محذوف أو خبر مع " لارَيْبَ فِيهِ " لذلك ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدّم خبراً عنه ، ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف .

والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال إن قوله : " الم " جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلةب نفسها ، و " ب و " ذلِكَ الْكِتابُ " جملة ثانية ، و " لارَيْبَ فِيهِ " ثالثة ، و " هُدىً لِلْمُتَّقِينَ " رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدّى به ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدي وشدّاً من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبثبه طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولانقص أنقص مما للباطل والشبهة(16).

ومن آثار موسوعيته أيضا أنه لم يكن مقلدا بل كان مجتهدا في أمور كثيرة وربما خالف إجماع النحاة ، مع قبول الكبار منهم كابن هشام لآرائه واجتهاده وإن ردوا عليه في مواطن عدة ، وكثيرا ما تأتي اجتهاداته مغنية عن التقديرات النحوية التي تحجب المعنى ، وتمزق الجملة ، وقدتبين معنى يدركه باحساسه اللغوي ولم يذكره غيره، ولا يضيره في هذا ألا يلتفت إليه أحد من النحويين [17]

ومن أمثلة اجتهاده ما جاء في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى : ( ما أنت بنعمة ربك بمجنون ) " القلم : 2 "، يقول : فإن قلت : بم يتعلق الباء في " بنعمة ربك " ؟ وما محله ؟ قلت : يتعلق بمجنون منفيا ، كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك : ضرب زيد عمرا ، وما ضرب زيد عمرا ، تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا ومحله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي (18)، ويوافقه على ذلك ابن هشام يقول : " ومن ذلك أي من تعلق الجار والمجرور بحرف النفي . قوله تعالى : ( ما أنت بنعمة ربك بمجنون ) ، الباء متعلقة بالنفي ، إذ لو علقت بمجنون لأفاد نفي جنون خاص ، وهو الجنون الذي

يكون من نعمة الله تعالى ، وليس في الوجود جنون هو نعمة ، ولا المراد نفي جنون خاص ، وهو كلام بديع إلا أن جمهور النحويين لا يوافقون على صحة التعلق بالحرف (19).

ومن آثار موسوعيته . أيضا أنه كان كثير التعليل في دراسته للألفاظ ، وشرحه لها يعقد صلة من المعنى بين الاسم ومسماه ،أو يذكر ما يلحظه من صلة بين الكلمة واشتقاقاتها المختلفة،أو يجعل الاسم كما تفعل العرب حكاية لصوت المسمى، وقد كثرت هذه التعليلات عنده حتى صارت ظاهرة بارزة في بحوثه ودراساته(20).

ومن ذلك ما جاء في كتاب " الفائق في غريب الحديث والأثر " من قوله : " البتيراء ؛ اسم للشمس في أول النهار قبل أن يقوى ضوؤها ويغلب ، كأنها سميت بالبتيراء مصغرة لتقاصر شعاعها عن بلوغ تمام الإضاءة والإشراق وقلته "(21).

ومنه كذلك ما جاء في كتاب " المستقصي في أمثال العرب " من قوله : " غراب : ليس في الأرض بارح ، ولا نطيح ، ولا قعيد ، ولا أعضب ، ولا شيء مما يتشاءمون إلا والغراب عندهم أنكد ، واشتقوا من اسمه الغربة "(22).

وفيه أيضا : " أصدق من قطاة : تسميها العرب الصدوق ، لأن صوتها حكاية لاسمها ، تقول : قطا قطا ، قال النابغة :

**تدعو القطا وبه تدعى إذا نسبت يا صدقها حين تلقاها فتنتسب**"(23)

ومع هذه الموسوعية والابتكار فقد كان له من الأخلاق ما منعه من الخوض في كثير مما خاض فيه غيره من النحاة والعلماء ؛لقد منعه صلاحه وورعه وتواضعه وأخلاقه من الخوض في الرد على غيره من النحاة أو تتبع آرائهم بالنقد ، كما هو الشأن عند أبي حيان وغيره ، وقد حمله حبه للعربية على أن يغضب للعرب ويتعصب لهم ، وينحاز عن الشعوبية وغيرها من الدعوات المناهضة لهم (24).

**مذهبه النحوي أو انتمائه إلى المدرسة البغدادية :**

ولد الزمخشري سنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة ، وتوفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة ، وهي الفترة التي شهدت نشأة المدرسة البغدادية وقوتها ، وقد أقام البغداديون مذهبهم على النظر في المذهبين البصري والكوفي والموازنة بينهما وأخذوا بما استحسنوه من آرائهما ، وأضافوا إلى ذلك ما بدا لهم من آراء خاصة وقد كان منهم من يغلب عليه الميل إلى الآراء الكوفية ، ومنهم من يغلب عليه الميل إلى الآراء البصرية(25)،وجدير بالذكر أن البغداديين لم يسموا هذه التسمية لأنهم سكنوا

وحاضروا في بغداد ، وإنما لأنهم لقنوا مذهبا جديدا مزيجا من تعاليم المدرستين القديمتين(26).

وقد كان الزمخشري ممن يغلب عليهم الميل إلى الآراء البصرية في منهجه ، فهو يعلي من شأن القياس ويقول : " ولا مزيد على ما يتعاون على ثبوته القياس والرواية "(27)، بل ربما قبل المسألة يجيزها القياس الصحيح ، ولا سماع فيها إلا البيت الواحد ، جاء في المفصل : " ويقال : شتان ما زيد وعمرو ، والمراد : شتان زيد وعمرو ، و " ما " زائدة ، وربما قالوا : شتان ما بين زيد وعمرو ، قال ربيعة الرقي :

**لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم ، والأغر ابن حاتم**(28)

وكان الأصمعي ينكر هذا الوجه ويأباه ... ، والقياس لا يأباه من جهة المعنى ومما تسرب إليه من المذهب البصري أيضا رد بعض القراءات والقول بتخطئتها ، ولو كان قارؤها من القراء السبعة ، جاء في الكشاف عند الحديث عن قوله تعالى في سورة الصافات : (أَصْطَفَى الْبَناتِ على البنين ) " الصافات : 153 "" فإن قلت : أَصْطَفَى الْبَناتِ بفتح الهمزة : استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبى جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت : جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم وَلَدَ اللَّهُ ، وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى الله عنهما ، وهذه القراءة – وإن كان هذا محملها – فهي ضعيفة ، والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها ، وذلك قوله قبلها : وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين"(29) .

وكان لا يعترف في السماع بالقليل الشاذ ، يقول عند في تفسير قوله تعالى: ( وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ) " غافر : 29 " " وقرئ الرشاد، فعال من رشد بالكسر كعلام ، أو من رشد بالفتح ، كعباد ، وقيل :هو من أرشد كجبار من أجبر ، وليس بذلك ، لأنّ فعالا من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف، نحو : درّاك وسارّ وقصار وحبار ، ولا يصح القياس على القليل (30).

وكان يستعمل مصطلحات أهل البصرة ؛ كالممنوع من الصرف ، والظرف ، والجار والمجرور ، والمجرورات ، والنعت ، والبدل ، والإعراب والبناء ، والضمير وضمير الفصل ، والمتعدي واللازم ، واسم الفاعل ، وغير ذلك ، وقد يميل إلى الكزفيين ، فيستأنس بما يسمعه من كلام الأعراب في زمنه ، وبشعر علماء العربية من المولدين كأبي تمام والبحتري والمتنبي ، يجعل ما يقولونه مثل ما يروونه ، جاء في الكشاف عند قوله تعالى : ( وإذا أظلم عليهم قاموا ) " البقرة : 20 " " وأظلم يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر ، وأن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل ، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب : أظلم ؛ على مالم يسم فاعله ،وجاءفيشعرحبيب بن أوس :

هُمَا أَظْلَمَا حالَيَّ ثُمَّتَ أَجْلَيَا ظَلَامَيْهُما عنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ(31)

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ؛ فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه "(32)

بل ربما استشهد بالمجهول قائله ، وفي المفصل أربعة وعشرون وأربعمائة شاهد شعري ، منها أكثر من مائة وسبعين شاهدا مجهول القائل ، أو مختلفا في نسبته إلى صاحبه(33).

ومما وافق فيه الكوفيين ما ذكر في الكلام على " أنهم صبروا " من قوله تعالى : ( ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ) " الحجرات : 5 " أنه في موضع الرفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم "(34)، وهو قول الكوفيين ، والمبرد ، والزجاج(35) ، وجاء فيه أيضا " أن " ما " التي في " كيمه " " استفهامية ، محذوف ألفها ، لحقتها هاء السكت ، واختلف في إعرابها ، فهي عند البصريين مجرورة ، وعند الكوفيين منصوبة بفعل مضمر ، كأنك قلت : كي تفعل ماذا ؟ وما أرى هذا القول [ أي : قول الكوفيين ] بعيدا عن الصواب "(36).

وجاء في الكشاف عند قول المولى سبحانه : ( فتقعد مذموما مخذولا ) " الإسراء : 22 " أن " فتقعد " بمعنى : فتصير ، فيكون اسمها ضمير المخاطب ، وخبرها مذموما(37) ، وهذا رأي شيوخ الكوفيين كالفراء والكسائي ، أما البصريون فلا يثبتون " قعد " بمعنى " صار " ، إلا في المثل : شحذ شفرته حتى قعدت كأنها حربة (38) ،ومما يدل . أيضا . على انتمائه للمذهب البغدادي استشهاده بالحديث النبوي الشريف ، بل إن بعض الباحثين عدوه في أوائل الذين يستشهدون بالحديث في النحو واللغة(39) ، وعد له محقق الكشاف ما يقارب ألفا وثمانمائة حديثا ، وعد له محقق شرح المفصل ثمانية وثلاثين حديثا ، وفي أساس البلاغة مائتان واثنان وتسعون حديثا ، بينما يحتوي ارتشاف الضرب لأبي حيان على ضخامته على خمسة وخمسين حديثا فقط ، ويحتوي البحر المحيط على ما يقارب ألفا وأربعمائة واثنين وخمسين حديثا(40) .

فمن استشهاده به ما جاء في المفصل من قوله : " وكل مثنى أو مجموع من الأعلام فتعريفه باللام... ، وفي حديث زيد بن ثابت . رضي الله عنه . هؤلاء المحمدون بالباب "(41) ، وفيه أيضا عندما تحدث عن اسم التفضيل قوله : " وله معنيان : أحدهما أن يراد أنه زائد على المضاف إليهم في الخصلة التي هو وهم فيها شركاء ، والثاني : أن يؤخذ مطلقا له الزيادة فيها إطلاقا ، ثم يضاف لا للتفضيل على المضاف إليهم ، لكن لمجرد التخصيص ، كما يضاف ما لا تفضيل فيه ، وذلك

نحو قولك : الناقص والأشـج أعدلا بني مروان ، كأنك قلت : عادلا بني مروان ، فأنت على الأول يجوز لك توحيده في التثنية والجمع ، وألا تؤنثه ، قال الله تعالى : (ولتجدنهم أحرص الناس) " البقرة : 96 " وعلى الثاني ليس لك إلا أن تثنيه ، وتجمعه ، وتؤنثه ، وقد اجتمع الوجهان في قوله . عليه السلام . : ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ، أساوئكم أخلاقا ، الثرثارون المتفيهقون "(42) .

**مذهبه الكلامي أو اعتزاله :**

كانت خوارزم . موطن الزمخشري . معقلا للمعتزلة ، وقد طغى عليها سيل الاعتزال حتى ليندر أن يوجد خوارزمي غير معتزلي ، بل أصبحت كلمة " خوارزمي " تعني " معتزلي " ، قال ياقوت الحموي في ترجمة القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي: ": وقلت له : ما مذهبك ، فقال : حنفي ، ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا . يكررها . إنما اشتغلت ببخارى ، فأرى رأي أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزليا . رحمه الله . (43)

وكان الزمخشري شديد التعصب لمذهبه ، مجاهرا به ، داعيا إليه ، فكان إذا قصد صاحبا له يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له : أبوالقاسم المعتزلي بالباب(44)، ووصف موطنه الأكبر . خوارزم . فقال : " ولقد أحسن ابن سمقة ، في جميع ما نمقه ، ولكنه أخل برأس فضائلها ، وهو مارزقته من المذهب السديد ، مذهب أهل العدل والتوحيد ، مع الباطشين فيه بقوة السواعد ، الرامين عنه بالنبل الصوارد ، والشاقين في دقايقه الشعر ، المطيرين عن نُخَر أعدائه النُعَر ، وذلك في كل زمان ، وخاصة في زماننا هذا ، فقد أزهر فيها ما شاء من السرج ، وأطال فيها ألسنة الحجج (45)، وقال في وصف القرآن في مقدمة تفسير الكشاف جاهرا بمذهبه : " وأنشأه كتابا ساطعا تبيانه "(46).

وكان لهذا الاعتزال أثر كبير في توجيه آرائه النحوية واللغوية ، بدا ذلك واضحا في كتبه ودراساته، وقد اتخذ هذا الاعتزال عنده صورا عديدة، منها:

1 . تأويل النص القرآني بما يتفق مع مذهبه : فيخرج به الأمر عن ظاهر النص . رغم وضوح دلالته . إلى معنى آخر لا يتعارض مع اعتزاله ، فيحمل النص ما لا يكون فيه ، يقول في تفسير قوله تعالى : ( وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ) " البقرة : 124 " ، قال : " ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ ، اختبره بأوامر ونواه ، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين : ما يريد الله ، وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك ، وقرأ أبو حنيفة رضي الله

عنه . وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه . ( إبراهيمُ ربَّه ) ، رفع إبراهيم ، ونصب ربه ، والمعنى : أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر ، هل يجيبه إليهنّ أم لا "(47)؟

وقد استبعد القرطبي هذه القراءة ، قال : " وقراءة العامة " إبراهيم " بالنصب ، و " ربه " بالرفع على ما ذكرنا ، وروي عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك ، والمعنى : دعا لإبراهيم ربه ، وسأل ، وفيه بعد لأجل الباء في قوله : بكلمات "(48).

وقال في تفسير قوله تعالى : ( ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ) " الأعراف : 180 " : "" وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى التي هي أحسن الأسماء ، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ، فسموه بتلك الأسماء ، واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، يا نخيّ ، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى ، نحو أن يقولوا : ياالله ، ولا يقولوا : يارحمن ، ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق ، فصفوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح ، وخلق الفحشاء والمنكر ، وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها ، وقيل : إلحادهم في أسمائه : تسميتهم الأصنام آلهة ، واشتقاقهم اللات من الله ، والعزى من العزيز "(49).

وقال في تفسير قوله تعالى : ( وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ) " القيامة : 22 ، 23 " فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول : عينيي نويظرة إلى الله وإليكم ، والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه "(50) .

فإن حاصره النص القرآني بوضوح العبارة ، وسطوع الدلالة حمله على التخييل والتمثيل ، يقول ( وسع كرسيه السموات والأرض ) " البقرة : 255 ": " وفي قوله: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ؛ أربعة أوجه ، أحدها : أنّ كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد ، كقوله تعالى : ( وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً

قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ) " الزمر : 67 "، من غير تصوّر قبضة وطيّ يمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسيّ ، ألاترى إلى قوله:( وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ) والثاني: وسع علمه وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم ، والثالث: وسع ملكه ، تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك،والرابع :ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض،وهو إلى العرش كأصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش "(51).

وقال في تفسيره لقول الله تعالى : ( ويوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ) " القلم : 42 " : " فمعنى " يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ " في معنى " يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم " ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبه فلضيق عطنه ، وقلة نظره في علم البيان ، والذي غرّه منه حديث ابن مسعود . رضي الله عنه .: " يكشف الرحمن عن ساقه ، فأمّا المؤمنون فيخرّون سجدا ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأنّ فيها سفافيد " (52)، ومعناه : يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة ، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده ، وهي ساق الرحمن ، فإن قلت : فلم جاءت منكرة في التمثيل ؟ ، قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة ، منكر خارج عن المألوف ، كقوله تعالى : ( يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ ) " القمر : 6 " ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل "(53).

بل كان يوغل في تأويله حتي يرد الحديث الصحيح ، يقول في تفسير قوله تعالى ( وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ) " آل عمران : 36 ": " وما يروى من الحديث : ( ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها )(54)، فالله أعلم بصحته ، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)" ص 82 ، 83 " ، واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه ، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي :

**لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ(55)**

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبلونا به من نخسه "(56).

2 . حمل الآيات المحكمات على المتشابهات : من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ( ومن شر

النفاثات في العقد ) " الفلق : 4 " : " النَّفَّاثاتِ: النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط ، وينفثن عليها ويرقين ، والنفث : النفخ من ريق ، ولا تأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ، ولكنّ الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشو والرعاع إليهنّ وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به ، فإن قلت فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه، أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهنّ في ذلك، والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن، والثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ، ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات ، من قوله: ( إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ) "يوسف : 28" تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد،أو اللاتي يفتن الرجال بتعرّضهن لهم وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك "(57).

فانظر كيف جاء لما ورد الكتاب والسنة بوقوعه ، وبالأمر بالتعوذ منه فاستفزه الهوى حتى أنكر ما عرف واتبع اعتزاله في إنكار حقيقة السحر ، وقد سُحِرَ صلى الله عليه وسلم في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر ، والحديث مشهور(58) ، ولو فسر غيره النفاثات في العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتمم إنكار وجود السحر : لعد من بدع التفاسير .(59)

وفي قوله تعالى : ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) " الإسراء : 15 " يثير شبهة . رغم وضوح الدلالة . ثم يجيب عنها ، يقول : " فإن قلت : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر في ما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان ، قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لئلا يقولوا : كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل "(60).

3 . اختيار وجه من الإعراب يوافق مذهبه حتى ولو كان ضعيفا أو مخالفا لرأي جمهور النحاة : قال في إعراب " وفريقا " من قوله تعالى : ( فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ) " الأعراف : 30 " " وانتصاب قوله " وفريقا " بفعل مضمر يفسره ما بعده ، كأنه قيل : وخذل فريقا حق عليهم الضلالة "(61) ، قال أبوحيان : " وهي تقادير على مذهب الاعتزال "(62) .

ويقول في تعلق (ونطبع على قلوبهم) في قوله تعالى:( أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم،ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون )" الأعراف: 100 ": "فإن قلت : بم تعلق قوله تعالى:( ونطبع على قلوبهم ) قلت : فيه أوجه: أن يكون معطوفا على ما دل عليه معنى:( أولم يهد)، كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم ، أو على : ( يرثون الأرض ) أو يكون منقطعا بمعنى : ونحن نطبع على قلوبهم ، فإن قلت : هل يجوز أن يكون ( ونطبع ) بمعنى " وطبعنا " ، كما ( لو نشاء ) بمعنى " لو شئنا " ، ويعطف على ( أصبناهم ) ؟ قلت : لا يساعد عليه المعنى ؛ لأن القوم كانوا مطبوعا على قلوبهم ، موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها ، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة ، وأن الله . تعالى . لو شاء لاتصفوا بها (63).

وقد ردّ أبو حيان في البحر المحيط هذه الأوجه التي قال بها الزمخشري كلها ، قال : " ( وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ) الظاهر أنها جملة مستأنفة ، وقال ابن الأنباري : يجوز أن يكون معطوفاً على ( أصبنا) ، إذا كان بمعنى" نصيب" فوضع الماضي موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستعمال ، وجعل" لَوْ " شرطية بمعنى" أن " ، ولم يجعلها التي هي لما كان سيقع لوقوع غيره ، وعطف المضارع على الماضي، فتأوّل المعطوف عليه وهو الجواب ، وردّه إلى المستقبل وهذا الذي قاله ابن الأنباري ردّه الزمخشري من جهة المعنى ، لكن بتقدير : أن يكون ( وَنَطْبَعُ ) بمعنى" طبعنا " ، فيكون قد تأوّل المعطوف وردّه إلى المضي ، وأنتج ردّ الزمخشري أنّ كلا التقديرين لا يصحّ ، وهو ردّ ظاهره الصحة ، وملخصه أنّ المعطوف على الجواب جواب ، سواء تأوّلنا المعطوف عليه أم المعطوف ، وجواب " لو " لم يقع بعد ، سواء كانت حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، أم بمعنى إن الشرطية ، والإصابة لم تقع ، والطبع على القلوب واقع ، فلا يصحّ أن يعطف على الجواب ، فإن تأوّل ( وَنَطْبَعُ ) على معنى : ونستمر على الطبع على قلوبهم ، أمكن التعاطف ، لأنّ الاستمرار لم يقع بعد وإن كان الطبع قد وقع ، وقال أبوعبدالله الرازي : تقرير صاحب الكشاف على أقوى الوجوه هو ضعيف ، لأنّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لم يكن منافياً لصحة العطف ، وكان قد قرّر أن المعنى : أولم يبين للذين نبقيهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها أن نهلكهم بعدهم ، وهو معنى قوله ( أَن لّوْ نَشَاء أصبناهم ) ؛ أي : بعقاب ذنوبهم ،( وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ) ؛ أي : لم نهلكهم بالعذاب،( فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ) أي : لا يقبلون ولا يتّعظون ولا ينزجرون ، وإنما قلنا : المراد إما الإهلاك وإما الطّبع على القلب لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب ،

فإنه إذا أهلكه يستحيل أن يطبع على قلبه ، انتهى ، والعطف في ( وَنَطْبَعُ ) بالواو يمنع ما ذكره لأنه جعل المعنى على أنه إما الإهلاك وإما الطبع ، وظاهر العطف بالواو ينبو عن الدلالة على هذا المعنى ، فإن جعلت الواو بمعنى" أو" أمكن ذلك ، وأجاز الزمخشري في عطف ( وَنَطْبَعُ ) وجهين آخرين ، أحدهما ضعيف ، والآخر خطأ فقوله : معطوف على مقدر وهو يغفلون عن الهداية ؛ ضعيف ، لأنه إضمار لا يحتاج إليه ، إذ قد صحّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل ، فهو معطوف على مجموع الجملة المصدرة بأداة الاستفهام ، وقد قاله الزمخشري وغيره ، وقوله : معطوف علي ( يَرِثُونَ )؛ خطأ؛لأنه إذا كان معطوفاً على يرثون كان صلة للذين ، لأنّ المعطوف على الصلة صلة ، ويكون قد فصل بين أبعاض الصلة بأجنبي من الصلة ، وهو قوله : (أَن لّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُمْ بذنوبهم ) "(65) .

ومن هذه الأمثله وهي كثيرة نرى كيف تأثر الزمخشري تأثرا كبيرا بالاعتزال في التفسير ، ومن ثم في توجيه من ناحية اللغة والنحو والبلاغة .

**مذهبه الفقهي :**

كان الزمخشري متفقها على مذهب الإمام أبي حنيفة ، محبا له ؛ حتى قال فيه : " الدين والعلم حنيفي وحنفي "(66)، وقال : " وتد الله الأرض بالأعلام المنيفة ، كما وطد الحنيفية بعلوم أبي حنيفة "(67) ، وقال : " رضي الله عن العلماء الخاشين من الله وحسابه ، الماشين على سبيل محمد –صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، المتواصين بالحق قلما يحيصون عن فجة الرحب إلى ثنيات المضايق،ولا يحيدون عن نهجه اللحب إلى بنيات الطرايق، في أفواهم بيض بواتر،على رقاب المبطلين، وفي أيديهم سمر عواتر في ثغر المعطلين ، جمعوا إلى الدين الحنيفي العلم الحنفي، وإلى العلم الحنفي الحلم الأحنفي،فنفوسهم رواسي الحلم، وقلوبهم معادن العلم، أولئك العلماء حق العلماء ، وسائرهم كالغثاء يطفو على الماء ، فلا تسمهم إلا بالحملة والرواة وادعهم زوامل الكتاب والدواة "(68).

وقد كان من أصول المذهب الحنفي إعمال العقل فيما إذا روي في المسألة قولان أو أكثر ، فيختار منهما أعدلهما وأقربهما إلى الأصول العامة مع التوسع في القياس والاستحسان ، وكان الإمام أبو حنيفة ماهرا في القياس متمتعا بدقة النظر وسرعة الخاطر وقوة الحجة(69)، وقد وافق ذلك طبعا في الزمخشري ، " إذ كان كلفا بحرية الرأي ، ميالا إلى عمق الفكر ، وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدل ، يقول : " لا تقنع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش في دينك تحت راية السلطان [ يقصد سلطان العقل ] ، فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما

العنز الجرباء تحت الشمأل البليل أذل من المقلد بين يدي صاحب الدليل ، وجامع الروايات المحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أوقر ظهره بالحطب ، واعتقل زنده بلا سبب "(70).

وكان من آثار تفقهه بالمذهب الحنفي أنه كان يذهب إلى أن القراءة رأي واجتهاد وهي تؤدى حسب المعنى ، ويغفل ناحية السند ، قال في قوله تعالى : ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ) " البقرة : 26 " : و " ما " هذه إبهامية ، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعا وعموما ، هذا إذا نصبت بَعُوضَةً ، فإن رفعتها فهي موصولة صلتها الجملة ، لأن التقدير هو بعوضة ، ووجه آخر حسن جميل ، وهو أن تكون التي فيها معنى الاستفهام ، لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات، والمعنى : أن لله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه ، أو بالمعدوم ، كما تقول العرب : فلان أقل من لا شيء في العدد ، ولقد ألم به قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ) " العنكبوت : 42 " ، وهذه القراءة تعزى إلى رؤبة بن العجاج ، وهو أمضغ العرب للشيح والقيصوم ، والمشهود له بالفصاحة ، وكانوا يشبهون به الحسن ، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه وهو المطابق لفصاحته "(71).

وعقب على ذلك الشيخ أحمد ابن المنير السكندري بقوله : " وما تبجحه بالعثور على الوجه الذي ظن أن رؤبة بن العجاج راعاه في قراءته ، فكلام ركيك ، توهم أن القراءة موكولة إلى رأى القارئ ، وتوجيهه لها ، ونصرته بالعربية ، وفصاحته في اللغة ، وليس الأمر كذلك ، بل القراءة على اختلاف وجوهها وبعد حروفها سنة تتبع ، وسماع يقضى بنقله الفصيح وغيره على حد سواء، لا حيلة للفصيح في تعسر شيء منه عما سمعه عليه ، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بدد كل فصاحة ، وعزل كل بلاغة ، فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول إلا عما سمعه فوعاه ، وتلقنه من الأفواه ، فأداه إلى أن ينتهى ذلك إلى استماع مِن أنصح مَن نطق بالضاد : سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام "(72).

ولعل من نافلة القول أن نذهب إلى أن حبه لحرية الرأي وإعمال العقل كان سببا في حملته على الصوفية ومخاصمته لهم ، ولا عجب في ذلك فإن بين الصوفية والمعتزلة اختلافا جسيما ، فالصوفية يتخذون وجدانهم وإلهامهم وسيلة للمعرفة ، على حين أن المعتزلة يجعلون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة ، وما يستنبطونه منهما بعقولهم(73) ، يقول عند الكلام على قوله تعالى ( ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ) " الرعد : 13 ": " ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين

له ، ومن بدع المتصوفة : الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم "(74) .

**وخلاصة** القول أن الزمخشري قد تأثر في حياته بمؤثرات عدة ، مثلت الأسس الفكرية والعقلية التي انطلقت منها آراؤه النحوية ؛ منها ما يرجع إلى البيئة التي عاش فيها ؛ كمذهبه الفقهي والكلامي ، فبلاد ما وراء النهر كان ينتشر فيها المذهب الحنفي ، وهو مذهب أهل الرأي والنظر ، وكانت تموج بتيارات علم الفلسفة والمنطق ، ومنها ما يرجع إلى العصر الذي عاش فيه ، وتمتعه بشيء من الحرية وتشجيع الولاة والحكام للعلم وتقريب العلماء، وظهور المدرسة البغدادية ونشاط علمائها ، ومنها ما يرجع إلى رحلاته وأسفاره التي مكنته من الاستماع إلى كثير من الشيوخ في كثير من الأماكن، ووسعت من آفاق تفكيره ومداركه، وزادت من ثقافته ومعارفه، ومنها حبه الشديد للعربية الذي حمله على حب أهلها والتأدب بآدابها، ومنها تمسكه بدينه ومجاورته للبيت الحرام بمكة .

وقد كان الزمخشري –ولا يزال– مرجعا مهما في النحو والتفسير والبلاغة، ولا تزال كتبه مصدر إشعاع وإلهام حتى يومنا هذا، يقصدها الباحثون، ويأوي إليها الدارسون، فيجدون فيها ضالتهم؛ بالرغم من اعتزاله وتعصبه لمذهبه.

- **الهوامش :**

1– تاريخ الطبري : 6 / 469 . 2– أحسن التقاسيم للمقدسي : 284 .

3– الزمخشري لأحمد محمد الحوفي : 6 .

4– ينظر في رحلاته وشيوخه وتلامذته وآثاره : إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي : 3 / 265 وفيات الأعيان لابن خلكان : 5 / 168 ، وإرشاد الأديب لياقوت الحموي : 19 / 126 ونزهة الألباء للأنباري : 338 ، وبغية الوعاة للسيوطي : 2 / 279 ، والأعلام للزركلي : 7 / 178 ، وكشف الظنون لحاجي خليفة : 2 / 1475 ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان : 5 / 215 ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : 3 / 48 .

الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 8 .

5– ينظر على سبيل المثال ما كتبه الثعالبي في يتيمية الدهر ، الجزء الرابع : 73 .

6–إرشاد الأريبلياقوت الحموي : 19 / 5 .

7– بغية الوعاة للسيوطي : 2 / 308 ، ولم أعثر على البيتين في مقدمة الكشاف .

8– تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : 5 / 216 . 9–شرح المفصل لابن يعيش : 39 .

10– مقدمة أساس البلاغة للزمخشري : 1 / 15 .

11–كشف الظنون لحاجي خليفة : 1 / 74 .

12– تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : 3 / 49 .

13–الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 147 .

14– ترجمة الشيخ إبراهيم الدسوقي في نهاية تحقيق الكشاف للشيخ : عادل أحمد عبدالموجود وآخرين 30 / 1232.

15- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 242 .
16- الكشاف للزمخشري : 1 / 35 .
17- الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 245 .
18- الكشاف للزمخشري : 29 / 1128 . 19- مغني اللبيب لابن هشام : 2 / 505 .
20- الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 302 .
21- الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري : 1 / 72 .
22- المستقصي في أمثال العرب للزمخشري : 1 / 183 .
23- السابق : 1 / 206 ، والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه : 77 .
24- المفصل للزمخشري : مقدمة المحقق : 3 .
25- ينظر المدارس النحوية،لشوقي ضيف : 245 ؛ وما بعدها ، ومدرسة الكوفة لمهدي المخزومي : 70 .
26- الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 215 .
27-الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري : 1 / 372 .
28-البيت في ديوان ربيعة بن عامر : 60 29- شرح المفصل لابن يعيش : 3 / 22 .
30- الكشاف للزمخشري : 23 / 915 . 31- السابق : 24 / 956 .
32- البيت في ديوانه بشرح التبريزي : 89 . 33- الكشاف للزمخشري : 1 / 55 .
34-الدرسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 186 .
35- ينظر الكشاف للزمخشري : 26 / 1034 . 36- الهمع للسيوطي : 2 / 170 .
37- شرح المفصل لابن يعيش : 5 / 128 . 38- الكشاف للزمخشري : 15 / 593 .
39- حاشية الصبان للأشموني : 1 229 .
40- الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري لفاضل السامرائي : 181 .
41- ينظر في ذلك فهارس الحديث في : الكشاف للزمخشري ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود وآخرين : 6 / 616 ، وشرح المفصل لابن يعيش ، تحقيق : إميل بديع يعقوب : 6 / 63 ، وأساس البلاغة للزمخشري ، تحقيق : محمد باسل عيون السود : 2 / 395 ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ؛ تحقيق : رجب عثمان : 5 / 2521 ، والبحر المحيط لأبي حيان ؛ تحقيق : إبراهيم شمس الدين : 9 / 276 .
42- شرح المفصل لابن يعيش : 1 / 140 .
43- السابق : 2 / 158 ، والحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب : البر والصلة ، باب : ما جاء في معالي الأخلاق ، رقم : 2018 .
44- إرشاد الأريبلياقوت الحموي : 16 / 239 . 45- وفيات الأعيان لابن خلكان : 5 / 170 . 46- ربيع الأبرار للزمخشري : 1 / 291 . 47-مقدمة الكشاف للزمخشري : 1 / 95 .
48- الكشاف للزمخشري : 1 / 317 . 49- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 1 / 483 .
50- الكشاف للزمخشري : 2 / 534 . 51- السابق : 6 / 270 .
52-السابق : 1 / 481 .
53- الحديث رواه الحاكم في المستدرك ، ، كتاب الأهوال : 5 / 63 ، برقم : 8833 .

54- الكشاف للزمخشري : 6 : 190 .
55- الحديث في البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، سورة آل عمران ، حديث رقم : 4274 .
56-البيت لابن الرومي ، الديوان : 1 / 374 . 57- الكشاف للزمخشري : 1 : 551 .
58- الكشاف : 6 / 465 .
59- الحديث في صحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب السحر ، حديث رقم : 2189 .
60- انظر الانتصاف من الكشاف ؛ بهامش الكشاف 6 / 465 . .
61- الكشاف : 3 / 499 . 62-الكشاف : 2 / 437 .
63- البحر المحيط : 4 / 290 . 64- الكشاف : 2 / 480 .
65- البحر المحيط : 4 / 352 . 66- نوابغ الكلم للزمخشري : 15 .
67- السابق : 15 . 68 - أطواق الذهب للزمخشري : 18 .
69- المدخل إلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان لأحمد سعيد حوى : 116 .
70- الزمخشري لأحمد محمد الحوفي : 68 . 71- الكشاف للزمخشري : 1 / 238 .
72- الانتصاف من الكشاف للسكندري ؛ بهامش الكشاف : 1 / 240 .
73- الزمخشري لأحمد محمد الحوفي : 92 . 74- الكشاف للزمخشري : 3 / 339 .

**مراجع البحث :**

1.الأشموني ؛ علي بن محمد : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ( عيسى البابي الحلبي ) ، د . ت .
2.الأنباري ؛ عبدالرحمن بن محمد ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1418 هـ - 1998 م .
3.البخاري ؛ محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري ، تحقيق : عبد العزيز بن باز ، بيروت ، دار الفكر 1414هـ - 1994م .
4.بروكلمان ؛ كارل ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، 1959 م .
5.الترمذي ، محمد بن عيسى : سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، د. ت .
6.أبو تمام ، حبيب بن أوس : الديوان بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : راجي الأسمر ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1414 هـ - 1994 م .
7.الثعالبي ؛ عبدالملك بن محمد بن إسماعيل ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1403 هـ - 1983 م .
8.الحاكم ، محمد بن عبد الله : المستدرك على الصحيحين ، القاهرة ، دار الحرمين ، 1417 هـ - 1997 م .
9ابن الحجاج ؛ الإمام مسلم : صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د . ت .
10.الحموي ؛ ياقوت بن عبدالله ، معجم الأدباء ( إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ) ، تحقيق : د . س . مرجليوث ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، 1355 هـ - 1936 م
11.الحوفي ؛ أحمد محمد ، الزمخشري ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1966 م .
12.حوى ؛ أحمد سعيد ، المدخل إلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ، دار الأندلس الخضراء جدة ، 1423 هـ - 2002 م .
13.أبو حيان ؛ محمد بن يوسف :

•ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق : رجب عثمان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1418 هـ - 1998 م.
•البحر المحيط ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1413 هـ - 1993م.
14.ابن خلكان ؛ أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1398 هـ - 1978 م .
15.خليفة ؛ حاجي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق : محمد شرف الدين ، رفعت الكلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ت .
16.الذبياني ، النابغة : الديوان ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ط : 2 1985 م .
17.الرقي ، ربيعة بن عانر : الديوان ، تحقيق : زكي ذاكر العاني ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، 1980 م .
18.ابن الرومي ، علي بن العباس : الديوان ، شرح : أحمد حسن بسج ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط : 3 ، 1423 هـ - 2002 م .
19.الزركلي ؛ خير الدين ، الأعلام ( قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة عشر ، 2002 م .
20.الزمخشري ؛ أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد :
•أساس البلاغة ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1419 هـ - 1998م.
•أطواق الذهب، مطبعة نخبة الأخبار 1304 هـ .
•ربيع الأبرار في نصوص الأخبار ، تحقيق : عبد الأمير مهنا ، الأعلمي للمطبوعات ، بيروت 1412 هـ - 1992 م .
•الفائق في غريب الحديث والأثر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبوالفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، د . ت .
•الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود ، علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 1418 هـ- 1998 م .
•المستقصي في أمثال العرب ، تحقيق : محمد عبدالمعيد خان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد - الهند ، 1381 هـ - 1962 م .
•المفصل في علم العربية، تحقيق: فخر صالح قدارة، دار عمار،الأردن ، 1425 هـ - 2004.
•نوابغ الكلم، تحقيق : فيصل مفتاح الحداد ، جامعة قاريونس ، د . ت .
21.زيدان ؛ جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، تحقيق : شوقي ضيف ، دار الهلال ، د . ت
22.السامرائي ؛ فاضل صالح ، الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، 1390 هـ - 1971 م .
23.السيوطي ؛ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر :
•بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة 1384 هـ - 1964 م .
•همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، تحقيق : محمد بدر الدين النعساني ، 1327 هـ .
24.الصبان ؛ محمد بن علي : حاشية الصبان على شرح الأشموني ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ( عيسى البابي الحلبي ) ، د . ت .

25.ضيف ؛ شوقي ، المدارس النحوية ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ، د . ت .
26.الطبري ؛ محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1387 هـ - 1967 م .
27.القرطبي ؛ محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ، دار الشعب ، د . ت .
28.القفطي ؛ علي بن يوسف ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1406 هـ - 1986 م .
29.المخزومي ؛ مهدي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1377 هـ - 1958 م .
30.المقدسي ؛ شمس الدين أبي عبدالله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن 1909م .
31.ابن المنير ؛ أحمد بن محمد السكندري ، الانتصاف من الكشاف ، مطبوع بحاشية الكشاف تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 1418 هـ- 1998 م .
32.ابن هشام ؛ جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ،تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت 1411 هـ - 1991 م .
33.ابن يعيش ؛ يعيش بن علي ، شرح المفصل ، تحقيق : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422هـ.

***